الأمثال العامية الأندلسية مظهر من مظاهر التفاعل الأندلسي المغربي

Andalusian colloquial Proverbs as an aspect of Andalusian-Moroccan interaction

د / شاكر لقمان ـ جامعة أم البواقي

الملخص

تهدف هذه الورقة البحثية إلى تتبع انتقال الأمثال العامية الأندلسية إلى المغرب الأقصى، باعتباره البلد الذي تربطه بإسبانيا روابط الجوار والصلات التاريخية منذ الفتح الإسلامي إلى الآن.

وقد انتقل المسلمون فرارا بدينهم وأموالهم وآدابهم وعاداتهم، واستوطنوا مناطق في المغرب وحواضر فيها في الشمال والجنوب، وكانت أمثالهم العامية لسانُ حالهم مَصوغةً بلكنة عجمية منغلقة، ومختلفة عن العربية بعض الشيء؛ لأنها نشأت في ظروف تاريخية معينة، بفضل اندماجها بلغات عناصر بشرية متعددة من بيئات مختلفة.

الكلمات المفتاحية: الهجرة ـ الأندلس ـ الأمثال العامية ـ اللغة العربية ـ المغرب الأقصى ـ لغة الأمثال.

Summarization:

This paper search aims to follow the transmission of Andalusian colloquial proverbs to the Far East (Morocco), as the country with which Spain has ties of neighborliness and historical ties since the Islamic conquest.

The Muslims were fleeing their religion, funds, Cultural heritage and customs. They settled in areas in Morocco, in some cities in the north and south. Their colloquial proverbs were characterized by a closed Ajami (Non-Arab) accent, and some what different from Arabic, because they arose in certain historical circumstances due to theirintegrationintodifferenthumanlanguageentitiesfromDifferentenviro nments.

مقدمة:

بعد قرار المَلِكيْن الكاثوليكيين القاضي بطرد المسلمين، مع السماح لمن أراد البقاء تحت قبة النصرانية، توالت الهجرات إلى شمال إفريقيا؛ إلى المغرب وتونس والجزائر بعد أن باع منهم أمتعته من باعَ، وحملها معه من استطاع، واتجه معظمهم إلى المغرب الأقصى، قدم أغلبهم من غرب الأندلس، واستوطن نصفهم بالشمال؛ في (تطوان، الشاون، القصر الكبير...) واستقر جزء آخر بعدوتي أبي رقراق والرباط وسلا وفاس، وتوزع الباقي على أنحاء البلاد[2].

ومن الملاحظ هنا أن هذه الفترة التي شهدت هجرات المسلمين وفرارهم من البطش تزامنت مع أزمة سياسية واقتصادية واجتماعية بالمغرب، إلا أن ذلك لم يصرفهم عن الإقبال على العلم وصنوف الآداب، بعد اندماج فئة منهم ليست بالقليلة في المجتمع المغربي، وأسهموا أيما إسهام في النقلة الحضارية في هذا القطر، وفي ميادين الحياة المختلفة؛ من علوم وفنون و فلاحة وصناعة وغيرها.

انتقل الموريسكيون بأموالهم وعيالهم ولغتهم العامية التي كانت عجمية؛ أي عربية غير أنها منغلقة وبخصائص اشتركت في تكوينها لهجات القبائل العربية، والعجمية، والبربرية، وبأمثالهم التي صاغوها صوغا جديدا، بعد أن تصرفوا في بُناها وتراكيبِها فظهرت بالشكل المعروف الذي سنأتي على بيانه في الأسطر اللاحقة.

---

[2]- ينظر تلخيص هذه الهجرة : مؤلف مجهول ، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر ، ضبطه وعلّق عليه : ألفريد البستاني، مكتبة الثقافة الدينية بورسعيد ، مصر، ط1 ، 2002 ، ص47 ، 48.

تحديد مشكلة الدراسة:

لم تكن اللغة العربية في الأندلس قاطبة مصونة الجناب، ولا محمية الأطراف؛ ذلك أن المسيحيين لم يكونوا يسمحون بالحديث بها في كل المناسبات ولا التعامل بها كأداة تواصل بين المسلمين لا سيما بعد سقوط آخر قلاع المسلمين، أين صار المسلمون يُخفون دينَهم وعاداتِهم وتقاليدهم ولغتهم أيضا؛ إذ اضطروا إلى استعمال لغة"الألخميادو"(Aljamiado) السرية؛ وهي مزيج من اللغة اللاتينية الإسبانية والحروف العربية.

وكانت الأمثال العامية الأندلسية جزءً من ممارسات المجتمع اللغوية، مما أصابها بذلك ما أصاب اللغة عامة. فكيف وجدت هذه الأمثال طريقها إلى المغرب الأقصى ضمن العادات والتقاليد والحرف التي صحبتهم بعد طردهم من طرف المسيحيين؟ وما هي الصورة التي انتقلت بها هذه الأمثال؟ وكيف تلقفها المجتمع المغربي؟

أهمية الدراسة:

من خلال هذه التساؤلات وغيرها يمكن إدراك أهمية هذه الدراسة من خلال الإجابة التي ستدور حول كيفية تشكل هذه اللغة المسافرة مع المطرودين من المسلمين في بيئتها أولا، والتي شهدت تضييقا على حياتهم وعلى كل المستويات، وطبيعة الآليات المستخدمة ثانيا للحفاظ على هذا التراث الإسلامي الذي استطاع أن يصمد قرابة ثمانية قرون في إسبانيا الإسلامية؛ يؤسس لحضارة شهد لها الزمان بالتطور والرقي والثبات لولا عاديات الدهر التي أسهم في ترسيخها عواملُ سياسيةٌ واجتماعية واقتصادية.

كما تكمن أهمية الدراسة أيضا في قدرة هذه الأمثال العامية الأندلسية على الحفاظ على سماتها البنائية من جهة وتأقلمها مع اللغة المغربية عامة وأمثالهم بخاصة.

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة ــ فيما تهدف ــ إلى تتبع موضوع الأمثال العامية التي نشأت في الأندلس ــ ليس لمعرفة نشأتها وتطورها كما ألمعنا سابقا ــ ولكن لمحاولة الوقوف على نماذج منها، وتحديد أهم القضايا التي تناولتها، تعبيرا عن صدى المجتمع الموريسكي الذي يعُدُّ هذه الأمثالَ متنفسا يعبّر من خلاله على الضغوطات والمضايقات التي باتت تخنق أنفاسه، وكيفية تلقي المغاربة لهذا الموروث، ومقارنته بأمثاله المحلية لبيان نقاط الشبه التي من الممكن أن تكون نظرا لعلاقة الجوار الجغرافية وطبيعة الوشائج التاريخية السياسية منها والاجتماعية والاقتصادية التي تربط بين البلدين.

نماذج من الأمثال الأندلسية العامية التي انتقلت إلى المجتمع المغربي:

إن المتتبع لأصل هذه الأمثال العربية يقف على حقيقة مفادها أن قائليها مجهولو النسب في الأغلب الأعم، الأمر الذي جعل جماع هذه الأمثال بخاصة يصرفون جهودهم عن تأصيلها ونشأتها. والباحث في مصادر أمثال العامة في الأندلس لا يستطيع أن يحدد أصول هذا الفن النثري إلا إذا أنفق جَهدا ووقتا كبيرين.

ودراستنا هذه لا تتغيَّا هذا المنحى من الموضوع (النشأة)، ولكن ستحاول أن تتطرق إلى بعض الأمثال العامية الأندلسية، وانتقالها إلى المغرب الأقصى؛ لأن الأندلسيين وظفوا بعض الأمثال العربية القديمة وأمثال المولدين أيضا، وكان للنوع الثاني حضورٌ لافتٌ في تاريخ الأمثال الأندلسية. ويرجع بعض المؤرخين ذلك إلى مناسبة المزاج الحضري في الأندلس، وتشابه الأوضاع الحضرية بين المجتمعين الأندلسي والعباسي، يضاف إلى ذلك تنقل الأندلسيين إلى المشرق، والمشارقة إلى الأندلس في إطار الانفتاح على عوالم

رحبة لتلقي صنوف العلم، والذي كان أيضا بطريق الاستعمال المباشر أو الرواية الشفوية والمكتوبة[3].

وكان لهجرة هؤلاء الأندلسيين إلى المغرب آثارٌ واضحة في مجالات عدة؛ منها ما يتعلق باللغة الأندلسية التي انتقلت إلى لغة المغاربة وأثَّرتْ فيها عبر مرحلتين ــ كما يراها الباحث محمد رزوق : "المرحلة الأولى: وهي التأثيرات التي أحدثتها جالية ما قبل القرن السابع عشر في لغة المغاربة. والمرحلة الثانية: وتتعلق بالخصوص بالتأثيرات التي أحدثها الموريسكيون في لغة المغاربة في بداية القرن السابع عشر"[4].

ويستنتج الباحث بهذا الخصوص ملحوظتين؛ تتعلق الأولى بانتشار الأمثال الأندلسية العامة بالمغرب بشكل لافت، لاسيما في الجهات التي استقرت بها جاليات أندلسية بعدد كبير، وتَمَثَّلَ العامةُ والخاصة بها. وأما الملحوظة الثانية فتتمثل في حرص الأندلسيين الوافدين على المغرب على لغتهم والحفاظ عليها بقدر كبير، وأن لغتهم تختلف عن لغة المغاربة؛ إذ كانت تمتاز بخصوصيات متعددة منها "الإمالة" : وهي إبدال الألف ياءً ؛ كأن يقول أحدهم: "الوسويس" بدل الوسواس، و"الخنيس " بدل الخناس ...وهكذا.

---

[3] ـ ينظر : الزجالي القرطبي أبو يحي عبد الله بن أحمد ، أمثال العوام في الأندلس ، تحقيق وشرح ومقارنة : محمد بن شريفة ،القسم الأول ، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي ، مطبعة محمد الخامس ، فاس ، جمادى الثانية 1395ه ، ص 149.

[4] ـ محمد رزوق ، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 و17 ، دار إفريقيا الشرق ، المغرب ، ط4 ، 2014 ، ص341

ويؤكد بنشريفة: "أن قسما كبيرا جدا من الأمثال الأندلسية الواردة في مجموعة الزجالي القرطبي ــ وعددها 2153 مثلا ــ ما يزال مستعملا في حواضر المغرب وباديه..."[5].

وتتلخص أسباب ذلك ــ حسب بنشريفة ــ في طبيعة العلاقة بين العدوتين؛ المغربية والأندلسية والصلات التي كانت تجمع بينهما منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية سقوط الأندلس.

وعلى الرغم من أن هذه الظواهر ــ المشار إلى بعضها ــ التي تميز لغة العدوتين عن بعضيهما أمر قائم، إلا أن هناك تقاربا كبيرا بين عربية الموريسكيين والدارَجة عند المغاربة؛ وللتدليل على ذلك نورد بعض الألفاظ بيانا للتقارب الصوتي بين الجنسين (المورسكي والمغربي) :

يقال في الأعجمية المورسكية :قَ(صَرْ تَمَرْ وَحْدَهُمْ فَجْرْ)، ويقابلها في الدارجة المغربية بالترتيب:قْ(صَرْ تْمَرْ وَحَدْهُمْ فْجَرْ).

وأما من بين الكلمات التي انتقلت مع الموريسكيين إلى المغرب عامة نذكر مثلا [6] :

اللفظ باللهجة المغربية	مدلولها	للفظ الإسباني
بابور	باخرة	Babor
براكة	كوخ	Barraca
بلاصة	ساحة	Plaza
الرويدة	العجلة	Rueda
كبوط	معطف	Capote
كارو	سيجارة	Cigarro
لامبة	مصباح	Lampara

[5]- الزجالي القرطبي ، أبو يحي عبيد الله بن أحمد ، أمثال العوام في الأندلس ، تحقيق وشرح ومقارنة : محمد بنشريفة، القسم الأول ، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي ، القسم 1 ، ص189

[6]- أحمد الكامون وهاشم السقلي ، التأثير المورسكي في المغرب ، سلسلة دفاتر المركز - 2 - ، مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، وجدة ، ط 1 ، 2010 ، ص122 ، 123.

فورمة	شكل	Forma
فاميلا	عائلة	Familia
سباط	حذاء	Zapato

وأما المصطلحات الإسبانية التي أدخلها الأندلسيون في قاموس اللهجة في الرباط المغربية بخاصة، فنذكر ما يلي[7]:

المصطلح الإسباني	المصطلح الرباطي	المصطلح العربي
Abogado	بوكادو	محامي
Armario	ماريو	خزانة
Babor	بابور	باخرة
Barco	باركو	زورق
Cabeza	رلأسبراكة	
Camisa	قميزا	قميص
Dos	دوص	إثنان
Docena	دزينة	اثنا عشر
Fabrica	فابريكا	معمل
Fideos	فداوش	شعرية
Goma	كوما	ممحاة

كما يشير الباحث المغربي محمد بن شريفة - في السياق نفسه- إلى أن الأندلسيين قد تصرفوا في الأمثال المولَّدة والأمثال العربية؛ باستبدال ما وجدوا لدى المشارقة بما يناسب الصياغة الأندلسية ونطقهم[8]؛ فما نقله الثعالبي في كتابه "التمثيل والمحاضرة" في سياق أمثال أهل بغداد ــ مثلا ــ عن البغدادي في القرن الرابع الهجري قوله[9]: "لا دَارَ بِكِرَا، ولا خُبزاً بِشِرَا"، جاء الأندلسي بعده وقال: "لا دَارْ بكِرا ولا دقيقْ بشِرا".

---

[7]- ينظر : خليل جزوليت ، سقوط غرناطة وهجرة الأندلسيين إلى المغرب ، كلمات للنشر والطباعة والتوزيع، سلا ، المغرب ، د ط ، 2011، ص80.

[8] - الزجالي ، أمثال العوام في الأندلس ، القسم الأول ، ص 150 ، 151.

[9]- الثعالبي أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ، تحقيق : عبد الفتاح محمد الحلو ، الدار العربية للكتاب ، طبعة جديدة ، 1983،ص45.

وقول البغدادي أيضا: "الشيطان يعدو بلا منشور فكيف إذا سُجّل له"، ليكون عند الأندلسي: "إبليس بلا بِطاقْ فكيف إذا بُطّق له"[10].

وأيا كان من أخبار الأمثال العامية الأندلسية؛ عربيِّها ومولّدها، فإنها قد وجدت طريقها إلى شمال إفريقيا وبخاصة إلى المغرب الأقصى وتونس والجزائر، وبنسب متفاوتة بحكم الجوار، والأقرب فالأقرب. وبحكم المناطق التي وفد إليها الأندلسيون بكثرة، وكان انتشارها في الشمال أكثر من الجنوب.

كما تنوعت موضوعات هذه الأمثال الأندلسية؛ فكان منها ما تضمن حكايات وصفات المدن والأماكن الأندلسية، ومنها ما تعلق بعاداتهم وعلاقتهم بحكامهم؛ فمن ذلك ما قيل عن عامة أهل قرطبة ومعاملاتهم مع الحكام وأولي الأمر بشيء فيه عدم الرضا بسياستهم حتى روي من أن السيد أبا يحي أخا السلطان يعقوب المنصور قيل له لمّا انفصل عن ولايتها: كيف وجدْتَ أهل قرطبة ؟ فقال: "مثلُ الجمل، إذا خفّفْت عنه الحملَ صاح، وإن أثقلته صاح"[11].

ومنها ما ذكر الأحداث التاريخية الشهيرة، فقالوا: "أيامَ أبو الغرانقْ"[12].

والغرانق: جمع غرنوق: وهو طير الماء. وأبو الغرانق كنية لأمراء ثلاثة من الغرب الإسلامي كلفوا بصيد الغرانق، هم (عبد الرحمن الداخل، عبد الرحمن بن الحكم، محمد بن أحمد بن الغالب)، ويضرب هذا المثل للأيام السعيدة.

ومن هذه الأمثال أيضا قولهم: "كما جَا عُبَيْد من طرُشْ"[13]، وهو ما يقابل المثل العربي الفصيح المشهور: "رجع بخفي حنين".

---

[10]- بطاق : بمعنى الإذن والتصريح. (الزجالي ، أمثال العوام في الأندلس ، رقم 144 ، ص 38.).

[11] - المقري التلمساني أحمد بن محمد ، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1968م، ج155/1.

[12]- الزجالي ، أمثال العوام في الأندلس ، القسم الثاني ، رقم326 ، ص 76.

[13]- نفسه ، رقم 1135 ، ص 264.

وأيضا قولهم: "إنْ كانَ مضَى غالِبْ، بقيَ الغالب"[14]، ويضرب هذا المثل عند موت رجل عظيم.

وأيضا : "رَعْيُ الجِمال خيرٌ من رَعْي الخنازير".

ومورد هذا المثل الذي أطلقه المعتمد بن عباد كان لمّا أيْقن بأن الأذفونش عزم عليه، شاور خاصته في قبول معاهدة النصراني أو الارتماء في حضن يوسف بن تاشفين، فكان الرأي الثاني، فقال له ابنه وولي عهده : أتُدخل علينا في أندلسنا مَنْ يسلبنا ملكنا، ويبدد شملنا؟ فقال: أي لا يسمع عني أبدا أني أعدت الأندلس دارَ كفرٍ، ولا تركتها للنصارى، فتقوم عليَّ اللعنة في منابر الإسلام مثلما قامت على غيري، حرز الجمال والله عندي خير من حرز الخنازير.

وفي امتداح سكنى جيان قالوا: "امدح البلدان واسكن جيّان"[15]

وقيل أيضا: "ارفَعْ مَنْ خُبْزَكْ، ولا ترفَعْ مَنْ شُغْلَكْ"

فكلمة " ارفع " معناها في اللهجة الأندلسية: ادَّخِرْ. أي : اقتصدْ في أكلك، ولا تقتصد في عملك.

ــ وفي خبرتهم بأحوال الطقس قالوا:

"إذا ريتَ بالغدو، خلّ دوابّك يرقُدُو، وإنْ ريْت بالعشي يسّرْ دوابَك للمشي"

وفي مراكش المغربية يقولونه بصيغة: "إِلاَ حْمارتْ مع العْشِي، غير خلِّي حمارك يمشي، وإِلاَ حْمارَت مع الصباح، خَلِّي حْمَارَك يَسْتْراحْ"، ومعنى المثل: إذا كان الجو متقلبا، يتوقع فيه نزول المطر ينصح بعدم السفر لتوقع حصول مكروه، وإذا كان الجو لطيفا فلا بأس بالسفر. هذا ما تعلق بالنثر، وغيره كثير جدا.

---

[14]- نفسه ، رقم 190 ، ص 48.

[15]- نفسه ، رقم ا 465 ، ص105.

أما ما كان مضمنا من الأمثال في الشعر، فقد كان هو الآخر وثيق الصلة بها؛ العامية منها والمولدة. فمن ذلك ما وُجد في شعر ابن مسعود القرطبي من أمثال عامية أو إشارة إلى بعضها، كقوله:[16]

عيبان في الدرهم نقص وردي وواحد قد كان يكفي لو قدِ

وقال أيضا:

ألحنُ في أشعاره من تيْسِ أعجزُ في البيت من الضُّرَيْسِ

وهو من الأمثال العامة السائرة، ويروى بـــ"أكسل من الضريس" ؛ لأنه يلقي رجعه على أولاده.

وأمثلة من هذا النوع كثيرة ومتعددة، وفي موضوعات شتى، جاءت مضمنة في أشعار الأندلسيين المختلفة، وبشقَّيها العربي والمولد.

وأما حضور الأمثال العامية الأندلسية في الأزجال فكان أكثر مقارنة مع الشعر الفصيح والنثر أيضا. وهذا أمر طبيعي بالنسبة لهذه المصاهرة الفنية بين الأمثال والأزجال؛ لأن هذه اللغة (العامية) هي أداة الزجالين، ومنها يغرفون موضوعاتهم، ومن عجينتها يشكلون صورهم وأخيلتهم. ومن هؤلاء الزجالين الأندلسيين نذكر ابن قزمان من القرن السادس، فقد نُقل عنه قوله:

فأنا هو كما يقال فالمثلْ: " عزَّ روحَكْ ولو نقلْت الفحمْ"

والمثل ــ هنا ــ ما تضمنه الشطر الثاني من البيت يبين فيه صاحبه عزة النفس.

ويقول كذلك في بيتين آخرين:[17]

وترى غير مَن شرب منها دوشْ ويَعَرْبَضْ وَ هُ"بحلْ وادْ شُوشْ"

لم يفرقْ بين العقل والهُـــوشْ "على رُوحُ يحَـــوَّلْ الأجراف"

---

[16] ـ نفسه ،رقم 1665 ، ص 379.

[17] ـ الزجالي ، أمثال العوام في الأندلس ، القسم الثاني ، رقم 640 ، ص 172.

والمثَل هو:

بَحَلْ وَادي شُوْشْ يَرمي الأجرافْ على رُوحُ ".

ـ تلقي المجتمع المغربي للأمثال الأندلسية:

لقد أشرنا فيما سبق إلى أن استمرار الأمثال الأندلسية في الانتشار كان بحسب قرب وبعد الأندلس من البلدان المجاورة لها، والمتاخمة لحدودها، وكان المغرب الأقصى أقربها، الأمر الذي زاد في توطيد صلات العدوتين الأندلسية والمغربية التاريخية في جميع المجالات، منذ الفتح الإسلامي إلى ما بعد خروج المسلمين من الأندلس، وإلى غاية الآن وباستوطانهم مدنا وحواضر مغربية متعددة ربطتهم علاقة التأثير والتأثر، فنتج التفاعل بينهما في كل مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية .... وما تزال.

واستتبع هذا التأثرَ ولوعٌ بما جاء به الأندلسيون الفارون بدينهم وعيالهم وأموالهم، وحِرَفهم وآدابهم، ومن ذلك أمثالهم العامية التي تلقفها الأدباء والرجازون والعلماء أيضا؛ فهذا شيخ الجماعة أحمد بن علي المنجور المكناسي؛خاتمة علماء المغرب وشيخ الجماعة في جميع الفنون الذي كان: "مولعا بأمثلة (بأمثال) العامة، خصوصا عامة الأندلس، يستحسن لغتهم ولكنتهم، ويثني عليهم وعلى بلادهم الجزيرة، ويستحسنها ويتشوق إليها"[18].

ونستنتج من هذا النص ــ إلى جانب ولع الشيخ المنجور بأمثال العامة ــ محافظة الأندلسيين الوافدين على المغرب بعد هجرتهم على لغتهم التي تمتاز بلكنتها الخاصة التي تختلف ــ فيما تختلف ــ عن لغة المغاربة.

[18] ـ الكناني الشريف أبو عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس ، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس لمَنْ أُقبر من العلماء والصلحاء بفاس ،ج3 ، تحقيق: عبد الله الكتاني وآخران ، دار الثقافة ، مؤسسة النشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، ط1 ، 2004 ، ص 78.

ومن هذه الأمثال التي تمثلها المجتمع المغربي إلى الآن قولهم: "لا دِيدِي لا حَبّ المْلُوكْ"[19]. ويضرب هذا المثل لمن يتطلع إلى غاية رفيعة فيفشل في نيلها ولا في أقل منها. وقد نقابله بالمثل المغربي القائل "لا سلة ولا عنب". وكلمة "ديدي"[20] أصلها "دادي" (لفظة رومية يونانية يقابلها في العربية شجرة الأرجوان)، لأن الأندلسيين يفضلون الإمالة (بإمالة الألف ياءً). وهذه سمة سنشير إليها لاحقا ضمن السمات اللغوية للأمثال الأندلسية.

ومثل آخر نقله الأندلسيون إلى المغرب ينكر فيه على بعض الخاصة من علماء وفقهاء ووجهاء ما يبدر منهم ما يمس بمكانتهم الاجتماعية والسياسية فقالوا: "الفَقِيهْ اللّي كُنَّا كَنْــتْسْــنَّاو برَكَتُو دَخَلْ للْجَامَعْ بِبَلْغَتُو". ومعناه الأصلي: الفقيه الذي كنا ننتظره بفارغ الصبر للتبرك به وبعلمه دخل المسجدَ ببلغته أي نعله غير مُبالٍ.

وقالوا أيضا :

" وَلَدْ بِلاَ لْـــــقَمْ بْحَالْ خُبز بْلاَ رْشَمْ"[21]، وكلمة "لْقَم"[22]: معناه الدموع؛ أي أن الطفل قد يفيده في تربيته حينما يضرب ضربا خفيفا؛ لأنه ينبهه إلى ما اقترف من أخطاء حتى لا يعود إليها في لاحق الأيام، فالضرب وسيلة –أحيانا-

---

[19] ـ ابن عاصم الغرناطي ، حدائق الأزاهر ، تحقيق: عبد اللطيف عبد الحليم ، المكتبة المصرية ، بيروت، 1992 ، ص352.

[20] ـ هو زهر ينبت بكثرة بغرناطة الأندلسية ، ومعروف بفاس المغربية بـ"ديدي ـ ممالة ـ

[21] ـ ابن عاصم ، حدائق الأزاهر ، ص 351.

[22] ـ يقول ابن خفاجة الأندلسي في تربية الأولاد باللقم (بالدموع)نَبِّهْ وليدَك مِن صِباهُ بزجْرةٍ فلرُبَّما أغفَى هناك ذكاـــؤه

وانهرْهُ حتى تستهلَّ دموعُه في وَجنــَتيْه وتَلْتَظِي أحشاؤه

فالسيفُ لا تَذْكُو بِرَكَفٍّ نارُهُ حتـــى يَسيلَ بِصفْحَتيْهِ مــاؤهُ .

(ابن خفاجة ، ديوان ابن خفاجة ، تحقيق : عبد الله سنده ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2006 ، ص18.).

للتربية السليمة. فلا بأس أن ترتسم دموع الطفل على خديه لأجل مصلحته وتربيته مثلما يوشم ويعلَّم (من العلامة) الخبز في الفرن.

أما كلمة " رْشَم" وعند أهل المغرب ــ خاصة منهم ذوي الأصول الأندلسية ــ (الرّشَم أو المَرْشَم) فهي علامة توضع على الخبز كطابع أو قالب حتى لا يختلط مع باقي الخبز في الأفران، وهي الآن بأشكال وأنواع تستعمل في تزيين البسكويتات وأنواع الحلوى في المغرب الكبير وفي المشرق.

ومن تلك الأمثال أيضا:

"خْــطْبْتِ المْرَا والمْرَمَّة". وكلمة "المْرَمَّة" تعني آلة الحياكة التقليدية، والأثواب التي تحاك باليد تقليديا أغلى وأثمن من التي تنتجها المصانع. ويقال هذا المثل للرجل إذا حظي بخطبة امرأة ماهرة؛ تحسن الطبخ والحياكة، ولهذا المحظوظ أن يزيدها صداقا اعترافا بإمكاناتها.

ومثل آخر يقول: "إذَا كُنْتِ فْضُولي كُنْ في جِيهَةْ المَخْزَنْ"[23]. و"الفضولي" هو الذي يتدخل فيما لا يعنيه، وقد يسمع ما لا يرضيه. و"المخزن" يقصد به عند الأندلسيين والمغاربة رجال الحكومة والسلطة.

والمعنى المقصود بالمثل أنه خير للفضولي أن ينضمّ إلى جهة السلطة؛ أصحاب الحل والعقد. وهذا ما يتوافق مع مثل مغربي ــ أصلا ــ " المَخزن هْرَبْ لِيلُو لا تَهْرَبْ مَنُّو".(أي: اهربْ للسلطة ولا تهرب منها، ولا تكن معارضا). مع التحفظ على صحة هذه القاعدة المثلية.

ومن الأمثال التي كانت منتشرة في المجتمعين الأندلسي والمغربي قولهم: "القْرِيبْ ولاَ البَرَّانِي الغْرِيبْ". ومعناه أن الأولوية والأفضلية يجب أن

[23] ـ ابن عاصم ، حدائق الأزاهر ، ص 296.

تعطى للأقرب فالأقرب قبل البعيد والأبعد. واعتبار الأندلسيين أن ذلك غير معمول به عندهم؛ كونهم يفضلون الأباعد على الأقارب. وهذا المعنى موجود حتى في عصرنا الحالي في شمال القارة الإفريقية كلها. وفي التاريخ الأندلسي ــ وقبله العباسي ــ شواهد على استوزار الغرباء واليهود على أمور المسلمين والأخذ برأيهم في شؤون خطيرة وحساسة. بل حتى هؤلاء المهاجرون كان لهم في فترات مختلفة النصيب الأوفر في ظل حكم بعض أصحاب الحل والعقد بسبب كفاءاتهم وخبراتهم من جهة، وبفضل توغل بعضهم للوصول إلى المناصب الرفيعة التي تقربهم من مراكز القرار، إما للتنسيق معهم لمجابهة النصارى الذين استولوا على ديارهم وأموالهم ثم طردوهم، وإما لتمكينهم من حياة مناسبة مع الأهالي المغاربة.

وفي معنى الضرورات تبيح المحظورات، يقول المثل: "قُلْ لِلْحِمَارْ سِيدِي حتَّى تْجُوزْ الوَادْ"[24]، وفيه إشارة إلى أن المرء إذا كان مضطرا بأن يتنازل عن بعض أنفته وأخلاقه ليبلغ هدفه فلا بأس في ذلك؛ لأن العبرة تقاس بمشروعية الهدف، حتى وإن كانت الوسيلة غير مناسبة وفق مبدأ الميكيافيلية. وقولهم كذلك:[25]

" عُرَيْس الزَّهْرَ وَحْدَة تْنَسِّ أُخرى". ورويت في أمثال العوام في الأندلس للزجالي ــ أيضا ــ بـــــ " وَحْدَة تِنَسّيكْ أُخْرَى". ولا تزال الصيغة مسموعة في "تطوان" بـــ " واحدَا كتنسّيك فِي أُخرى"، نسبة إلى مدينة الزهراء بقرطبة الأندلسية.

ومثل آخر رواه ابن عاصم في الحدائق ما نصه :

[24] ـ ابن عاصم ، حدائق الأزاهر ، ص 76.

[25]ـ الزجالي ، أمثال العوام في الأندلس ، القسم الثاني ، رقم 1651 ، ص 376.

" خَليقة موسى العطّار: ماعَكْ حنّة؟ قال: ماعِ عِلّة". ويمثَّل هذا المثل صيغة أخرى فيها الاختصار للكلمات كما يراها ــ الباحث بن شريفة ــ[26] ؛ إذ يروى عند

الأندلسيين بالشكل الآتي:

" خلوقْ بَّا موسى العطّار (أي أخلاق أبي موسى العطار)".

وأيضا :

" مَنْ ماعُ خبيز يُعْطَ باشْ ياكل"[27]

وأيضا :

" مَن اللّه جيت ذا السَّفَيْنَجيتْ "

وأيضا :

بحالْ مَنْ يَطْرَبْ (يضرب) الكلب بالسفَنْج "

وفي هذا المثل الأخير قلبٌ في حرف الضاد طاءً، كما في كلمات أخر، مثل: (رطي) بمعنى رضي، طحك (بمعنى ضحك) وهكذا.

والمعنى : الإسفنج نوع من العجين يقلى بالزيت ــ معروف في المغرب العربي لا الأقصى فقط ــ ومفاده أن الرزق قد يساق إلى المحتاج دون السعي إليه.

ـ بعض السمات اللغوية في الأمثال العامية الأندلسية:

بالرجوع إلى ما أُلف من أمثال الأندلسيين بصفة عامة؛ كمؤلفات الزبيدي، وابن هشام اللخمي، وابن هانئ السبتي الإشبيلي، وابن جزي الغرناطي، وابن خاتمة وغيرهم، وبالعودة إلى المعاجم الثلاثة التي ألفت خلال

[26]ـ السابق ، القسم الأول ، ص 197 ، 198 .

[27]ـ نفسه ، ص 198.

القرون الوسطى في إسبانيا[28]، يمكن للباحثين أن يجدوا في هذه الأمثال مادة ثرية بألفاظ وتراكيب تستحق الوقوف عندها لسبر أغوارها، وعقد مقارنات ــ وفق مناهج مختلفة ــ بينها وبين الأمثال الأخرى الفصيح منها والعامي في إطار اللغة العربية التي أقبل الإسبان منذ الفتح على تعلمها والتحدث بها، بل ونظم الشعر بها، إلى جانب اللغة الرومانثية (الرومانسية) (El Romance) التي انبثقت من اللغة اللاتينية التي كانت سائدة في شبه الجزيرة الإيبيرية قبيل قدوم المسلمين، ثم نشأة اللغة القشتالية؛ وهي اللغة الإسبانية القديمة بعد تأثرها باللغة العربية.

ودعما لهذا الكلام في الازدواج اللغوي[29] الذي فرضته طبيعة المجتمع في أسبانيا آنئذ؛ من عرب وعجم، مسلمين ونصارى، وكانوا كلهم يحسنون ــ بنسب متفاوتة ــ الحديث والإبداع بالعربية والعجمية بحكم الاندماج بالمجاورة والمصاهرة والتعامل في جميع شؤون الحياة .

واستنادا إلى أبحاث الأستاذ خوليان ريبيرا (Julian Ribera) المتوفَّى عام 1934، تبيَّن: "أن أهل الأندلس الإسلامي كانوا يستعملون اللغة العربية الفصيحة كلغة رسمية يتعلمها الناس في المدارس، ويكتبون بها الوثائق وما إليها؛ أما في شؤونهم اليومية وأحاديثهم فيما بين بعضهم وبعض فكانوا يستعملون لهجة من اللاتينية الدارجة أو العجمية El Romance . وليس ذلك بغريب؛ لأننا إذا ذكرنا أن عدد العرب الخلص الذين دخلوا الجزيرة كان قليلا

---

[28]- يقصد بهذه المعاجم : المعجم اللاتيني العربي في ق10م ، مؤلفه مجهول ، والمعجم المنسوب إلى الراهب القطلانيرمند مرتين في ق13م، ومعجم الراهب فراي بدور ألاكا في ق16م.

[29]- اللغة العربية القديمة يقصد بها الفصحى ؛ وهي لغة الأدب ، والعربية الدارجة هي لغة الإدارة والحكومة ، واللاتينية الكنسية هي لغة العبادة عند النصارى ، واللغة الرومانثية هي لغة التعامل.

جدا تبينا أننا لا نستطيع اعتبار الأندلسيين المسلمين ساميين أو مشارقة ابتداء من جيلهم الثالث أو الرابع من بعد الفتح، ولنضف إلى ذلك أن شعوب أوروبا كانت تستعمل في ذلك الحين اللاتينية كلغة، وأن ناسها كانوا يتحدثون إلى جانبها لهجات أعجمية Romance مختلفة مشتقة من اللاتينية"[30].

هذا إلى جانب ما ذكره ابن حزم في شأن تبديل الألفاظ العربية بقوله في كتابه "الإحكام في أصول الأحكام": "نحن نجد العامة قد بدلت الألفاظ في اللغة العربية تبديلا وهو في البعد عن أصل تلك الكلمة كلغة أخرى ولا فرق، فنجدهم يقولون: في العِنب العَيْنَب، وفي السوط أسْطوط، وفي ثلاثة دنانير ثلْثَدَّا. وإذا تعّرب البربري فأراد أن يقول الشجرة قال السجرة. وإذا تعرب الجليقي أبدل من العين والحاء هاءً، فيقول مهمداً إذا أراد أن يقول محمداً"[31]، نجد الأندلسيين قد أضافوا إلى بعض الأسماء "الواو والنون" للدلالة على التكبير؛ كعبدون، وأصلها عبد أو عبيدس، وزيدون، وخلدون.... وكسروا في عاميتهم أول حروف المضارعة (أنيت) فيقال في: نُسدّد (وزن فعّل في الماضي) نِسدّد ــ تِسدّد ــ يسدّد. وفي نُجامل (وزن فاعل في الماضي) يقولون: نِجامل ــ تِجامل ــ يجامل... وهكذا.

وألحقوا التاء بآخر ضمائر الغائب؛ فيقولون في: هو: هوت، وفي هي: هيت، وفي هم: همت. وتمثيلا في ذلك بالضمير الثاني (هي: هيت) قيل في بعض الأمثال : "مناقِر اللّحم معوّج هيت".

---

[30] ـ آنخل جانثالث بالنثيا(A.Gonzales Palencia) ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة : حسين مؤنس ، مكتبة الثقافة الدينية ، لقاهرة ، مصر ، دط ، 1955 ، ص 142.

[31] ـ ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد ، الإحكام في أصول الأحكام ، تحقيق: الشيخ أحمد محمد شاكر ، ج1 ، د ط ، د ت ، ص 32.

ــ لغة الأزجال ما هي إلا مزيج من اللغات واللهجات، وفيها العامي الأندلسي والفصيح العربي وفيها الأعجمي الذي منه يقول ابن قزمان:

شمّرْ أكمامُ ، خرجْ للأسْطُوانْ

ردّ لك يدّ على اطريشّان

رَيْت أنا إنسانَ لم يتركْ هزّان

طِرْت ، لم يلحَقْ منّي غير غُباري

فكلمة " أطريشّان": هي كلمة أعجمية، بمعنى: مرتاح البال؛ أي مِغْلاَق الباب.

ويقول الشاعر ذاته في نموذج آخر:

زَوْجَهْ النسَ مَشْغُولْ هُ فَسُوقْ

يَمْضي بالعدو، الله لا يسُوقْ

مَنْ يرَى السّكّر يَريدْ أنْ يَذُوقُو

مَنْ أرَاني عيني يَطلَبْ بَلْطَاري.

والكلمة الأعجمية هي "بلطار" التي أضاف إليها الشاعر "ياء" المتكلم، والمعنى: الحَنَك.

ــ حُذف من الكلمة بعض الأحرف، وهذا مرده إلى بعض الكلمات المستعملة بكثرة؛ مثل: ضمير الغائب "هو" الذي يحذف منه حرف "الواو"، يقول ابن قزمان:

ابْن مُغيثْ، يا مولى الموالي.

أت هُ ضِياعي وأتَ هُ مَالي؛ أي: (أتَ هُ: أنتَ هُو ــ أتَ هُ: أنتَ هو مالي).

ــ التنوين: وهو ــ هنا ــ إلحاق الألف والنون لكل كلمة مفردة منونة، يقع في كلام الأندلسيين العادي، وفي أمثالهم كما في الآتي:

كَلاَمَ انْ كثير في حَاجَة انْ يَسيرْ

قَرْدَانْ مهَاوِدْ أخْيَرْ مِنْ غَزال انْ شَرُودْ
بَحَلْ زقّ انْ ناقِصْ على حِمَارَةَ انْ

والكلمات المقصودة هي : (كَلاَمَ انْ ــ حَاجَة انْ ــ قَرْدَانْ ــ غَزال انْ ــ زقّ انْ ــ حِمَارَةَ انْ).

أو في مثل آخر يقول فيه صاحبه :

مَنْ طلبْ دَيْنَ انْ قديمْ طلبْ شرَّ ان جديدْ.

فالكلمتان اللتان أضيف إليهما الألف والنون هما: (دَيْنَ انْ ــ شرَّ ان).

وكما لاحظنا في الأمثال أن التنوين الذي لحق الكلمات كان بالألف والنون سواء أكانت الكلمة مرفوعة أم منصوبة أم مجرورة.

ــ الإمالة: ويورد صاحب الإحاطة في فصل ذكر فيه سير أهل غرناطة وأخلاقَهم فقال: "أحوال هذا القطر في الدين وصلاح العقائد أحوالٌ سَنيّة... وألسنتهم فصيحة، يتخللها غَرْبٌ كثيرٌ، وتغلب عليهم الإمالةُ"[32].

كما يذكر الزجالي في هذا الموضوع مقامة "طرفة الظريف في أهل الجزيرة وطريف" لعبد العزيز الملزوزي التي يقول فيها: "ومن غريب ما اتفق لي فيها (أي في الجزيرة الخضراء) حين كنتُ أوافيها أنني مررتُ بإمام يصلي بالناس وهو يقرأ "بقل أعوذ برب الناس".

قد بدّل "الوسواسَ" بالوسويس وكذلك "الخُنّاسَ" بالخَنِّـــيس
وكذلك بدّل آية في آية حتى "يوسوسَ في صدور الناس"[33]

فردّ عليه بأبيات من الشعر فيها العتاب الشديد واللوم الكبير.

---

[32]- لسان الدين بن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، مراجعة وتقديم و تعليق : بوزياني الدراجي ، القسم الأول ، دار الأمل للدراسات والنشر والنوزيع ، الجزائر ، دط ، 2009 ، ص 243.

[33] ـ الزجالي ، أمثال العوام في الأندلس ، القسم الأول ، ص283.

ــ إضافة حرف " الكاف " في بداية الكلمة:

"الفْقِيهْ اللِّي كَنْتْسْنَّاوْ بَركَتُو دخَلْ لَلْجَامَعْ بِبَلْغَتُو" .

ــ تسوية بين المذكر والمؤنث صرفيا:

ويظهر ذلك في أحد الأمثال الأندلسية القائلة: عزيزَ قُمْ رَحَّلْ، قالتْ: اصبرْ نَخُذْ نحْي من الحَيط.

أو كما قالوا :

" إذا كُنْتِ فْضولي كُنْ في جِيهَةْ المَخزَنْ ". بمخاطبة المذكر كالمؤنث.

ــ حذف نون المثنى وبعض الأحرف من باب الترخيم، ويظهر ذلك في الأمثال التالية: كمْ تكلْ؟ قال: مِنْ "متىَ" مَنْ؟ أي: منْ متاعِ مَنْ(حذف العين). شبَرْ وعَقْد مِنْ "قدْ متىَ" كل أحدْ؛ أي: مِنْ قَدر متاعِ كل أحد (حذف الراء والعين).

اشْ يَرى الأحْدَب حدبَةُ إلى متا غير.(إلى متاع غيره).

ارحمني وارحمْ جارتي متا الساحل. (متاع الساحل).

كلامَ الحبيب يبَكِّي ومتى العدو يضَحَّكْ. (ومتاع العدو) .

ــ التزام السجع: وشأن الأمثال الأندلسية التي وجدتْ لها طريقا إلى المغرب الأقصى، وجرت على ألسنتهم شأن كل الأمثال الأخرى وبلغات أخرى؛ كقولهم:

إذا حجّ جارك، بِعْ دارَكْ، وإنْ حجّ مرتينْ بعها بالدّين.

وهذه نصيحة تبين قيمة الجار الحقيقي، وبالتالي ضرورة الحفاظ على الجوار ضرورية.

إلى جانب هذه الخصائص والسمات اللغوية التي أشرنا إليها في الأمثال الأندلسية يمكن أن نذكر سمات أخرى ــ على سبيل الذكر فحسب ــ

تشكلت بها هذه النصوص مثل: صور التشبيه والكناية التي تعبر عن خيال أصحابها، وأسلوبي التفسير والحوار اللذين يدلان على القدرة على التنويع في الكلام من أجل التواصل بلغة مشتركة بينهم وفي سياقات مختلفة، دون إغفال ظاهرة البذاءة في أمثالهم والفحش فيه، والتنابز بالألقاب، ولا سيما في مجالس التنكيت التي كثيرا ما يديرها أو يحضرها عامة الناس لا خاصتهم لما فيها من سوء التظرف في الكلام.

الخاتمة:

هذه محاولة مُجْتَزَأَةٌ من موضوع واسع، دارت فكرتها حول الأمثال العامية الأندلسية التي كانت عجينتها من فئات اجتماعية مختلفة المشارب، ومتباينة المذاهب؛ من عربية وعجمية، تضافرت كلها لتشكل مادة عَبَرَت المسافات، وسجَّلت حضورها في بيئة عربية، هي المغرب الأقصى بحكم قرب المسافة والعلاقة التاريخية التي نسجت خيوطها منذ الفتح الإسلامي إلى الآن.

وقد واكبت هذه الأمثال سيرورة النثر والشعر على حد سواء، يغلب عليها طابع الخيال والمجاز، وتتشكل كلماتها بلغة عامية لتعبّر عن رؤى أصحابها في المجتمع الذي ترعرعت فيه، ثم انتقلت بفعل الانفتاح إلى بيئات أخرى، وتلقفتها الألسن ووظفتها أحسن توظيف في معاملاتها وتواصلها بتعابير مختصرة، ولكن بليغة ودالة على المقاصد التي تستهدفها.

ومن أهم النتائج التي خلصت إليها هذه الورقة نذكر ما يلي:

ــ تعد العامية الأندلسية ثمرة انتشار العربية في بيئات جديدة، متنوعة العناصر واللغات؛ من عرب وعجم وبربر...

ــ أمثال العامية الأندلسية لكنة أعجمية؛ أي أنها عربية، غير أنها منغلقة، ومختلفة عنها بعض الشيء.

ــ اشترك في تكوين اللهجة الأندلسية لهجات القبائل العربية والعجمية والبربرية.

ــ الأمثال العامية الأندلسية فصيحة ــ في الأصل ــ صاغها العامة صوغا جديدا بتبديل بعض البُنَى، وتغيير بعض التراكيب تماشيا وألسنتهم.

ــ انتشار الأمثال العامية الأندلسية انتشارا لافتا في بيئات استقرار المهاجرين، وتَمَثَّل بها خاصةُ المغاربة وعامّتُهم.

ــ حرص الأندلسيين على الحفاظ على لغتهم ، والحفاظ على خصائصها؛ كالإمالة، وحذف أحرف مع الضمائر، وإضافة أخرى مع بعض الأفعال، وكسر أحرف المضارعة، وغيرها من الخصائص التي انْمازَت بها.

البيبليوغرافيا :

[1] ــ آنخل جانثالث بالنثيا(A.Gonzales Palencia) ، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، دط، 1955.

[2] ــ الثعالبي أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، الدار العربية للكتاب، طبعة جديدة، 1983.

[3] ــ ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: الشيخ أحمد محمد شاكر، ج1، د ط ، د ت.

[4] ــ ابن خفاجة، ديوان ابن خفاجة، تحقيق: عبد الله سنده، دار المعرفة، بيروت، ط1، 2006.

[5] ــ خليل جزوليت، سقوط غرناطة وهجرة الأندلسيين إلى المغرب، كلمات للنشر والطباعة والتوزيع، سلا، المغرب، د ط، 2011 .

[6] الزجالي القرطبي، أبو يحي عبيد الله بن أحمد، أمثال العوام في الأندلس، تحقيق وشرح ومقارنة: محمد بنشريفة، منشورات الوزارة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، القسم الأول والقسم الثاني، 1975.

[7] ــ ابن عاصم الغرناطي، حدائق الأزاهر، تحقيق: عبد اللطيف عبد الحليم، المكتبة المصرية، بيروت، 1992.

[8] ــ الكناني الشريف أبو عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس لمَنْ أُقبر من العلماء والصلحاء بفاس،ج3 ، تحقيق: عبد الله الكتاني وآخران، دار الثقافة، مؤسسة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، 2004.

[9] ــ المقري التلمساني أحمد بن محمد، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج1، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1968.

[10] ـــ لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، مراجعة وتقديم وتعليق: بوزياني الدراجي، القسم الأول، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر، دط ، 2009 .